لمحة صحيَّة

عن بلاد بشارة وما يجاورها

للدكتور سليمان افندي الحاج

اقمت نحواً من خمس سنوات في بلاد بشارة وترددت الى ما يجاورها من قضائي مرجعيون وصفد فخطر لي ان اكتب شيئاً عن الحالة الصحيَّة في تلك الجهات عن مائها وغذائها وزيها وبنيانها وهوائها مما يتعلق بالصحة وعن الامراض الاكثر انتشاراً فيها بقدر ما استطيع اليه سبيلا

١ الماء

ان المسافر صيفاً في هذه البلاد يشتهي ان يصادف في طريقه ماء جارياً يبرّد به ظمأه . فالينابيع الجارية قليلة جداً واكثر المياه وجوداً ماء الآبار . وهي قسمان : منها آبار ذات نبع يتزز ماؤه شتاء ويفيض ويجري حتى اذا جاء الصيف لا يبقى منه سوى الاوشال في قعر الركايا . ومنها آبار تختزن مياه المطر . ولمنهل البهائم حفر في الارض واسعة تدعى بركاً وسطها اعمق من دائرتها تحوّل اليها مجاري المياه الشتوية فتملأها ولا يقبل اول الخريف حتى تصبح مستنقعات يأجن ماؤها وتنبعث منها روائح عفنية ويتولد فيها بعوض الحمى الملارية . والنتيجة ان اكثر المياه في تلك الجهات غير حائزة الصفات الجوهرية التي تجعلها اهلاً للشرب . والآبار باجمعها ليس لها حواجز تمنع عنها الاوساخ والاقذار المحيطة بها بل هي معرَّضة لكل غارات الميكروبات واذا اتصل بها ميكروب الهواء الاصفر والحمى التيفودية او خلافهما اضحت وسيلة عظيمة لتفشي الامراض الوبائية وهلاك الاهالي

٢ الغذاء

الغذاء معظمهُ من المواد النشوية واكثره من القمح والعدس والفول والشعير ويدخرون من الاثمار التين والزبيب . ولكثرة اقتياتهم بالعدس دعوه « بأم الفي ليس عنها غنى » ويسمّونهُ « مسامير الركب » (لانها تشدد ركبهم على الشغل) ومع ذلك لا يحسنون طبخه ولهم طعام مخصوص لايام الحصاد يقولون له بليلة وهي سميذ مبلّل بالماء وممزوج

باللبن وبعضهم يأكلون دبس العنب ممزوجاً بالماء ويحبون هذا الطعام ويقولون فيه انهُ يبرّد حرارة الجوف. وبالاختصار ان اكثر سكان هذه البلاد لا يتأنّقون بالمأكل والمشرب ما عدا افراد قليلين منهم. ومن ثمَّ تقلّ عندهم التابكات المعديّة جدًّا. ومهما اكثروا من اكل المواد النشوية فقد اعتادت معدهم هضمها والاشغال اليدوية اكبر مساعد على ذلك. وامراض العيشة المترفهة كالنقرس والرمل الكلوي والصفراوي والبواسير يمزّ وجودها ما بينهم. وسمعت قوماً منهم ينسبون ذلك الى كثرة اكلهم التين. واظنّ ان السبب هو قلّة اغتذائهم بالمواد الازوتية وكثرة الاشغال اليدويّة ولعلَّ للتين في الامر فعلًا لانهُ من الملينات

٣ الزي

مجمل زيّهم انَّ الرجل يلبس كوفيّة (حطّة) وعقالًا وعباءة وصاكو وقمبازًا وثوبًا وسروالًا وتلبس المرأة منديلًا او حطّة وقسطانًا وزارًا وثوبًا وسروالًا. وفي بعض القرى تضع المرأة المتزوجة عصابة على رأسها علامة فارقة بينها وبين الصبيّة العذراء. والاحذية المعروفة عندهم هي المداس والنعال. ومن المعلوم ان الغاية المقصودة من الزيّ التوفيق بينهُ وبين احوال كل فصل من فصول السنة من نوع الاقمشة والالوان. فبوجه الاجمال ليس لاهل هذه البلاد لباس مخصوص بفصل من فصول السنة فالعباءة التي يلتحف بهِ الرجل شتاء يتزمل بها صيفًا والشال الذي تتاثم بهِ المرأة شتاء تشتمل بهِ صيفًا خلافًا للقوانين الصحية وترى اهل الساحل يلبسون البياض صيفًا وشتاء. ومن اهمّ صفات اللباس النظافة وهو امرٌ قلّما يكترثون لهُ. وقد رأيت من الفلّاحين قومًا لا يبدلون لباسهم طول ايام الحصاد فتنبعث منهُ روائح زنخة تشمئز منها النفوس. امّا عرب البادية فحدّث عن وخمهم ولا حرج فثيابهم تلمع كانها مشمّعة من كثرة الاوساخ واذكر انهم دعوني يومًا الى منازلهم فبسطوا لي فراشًا ما قدرت ان اعرف لون قماشهِ من كثرة اوساخهِ

قد ذكرت للزي سيئاتهِ ومن العدل ان اذكر حسناتهِ فمما يُستحسن باجمالهِ انهُ لا يضايق الجسم بل يترك لكل عضو تتميم وظيفتهِ بحرية كاملة. واخص بالذكر والاستحسان ان النساء لا يتخذن مشدّات تضايق صدورهن ومعدهن وتحرم جهازي الهضم والتنفّس من حريتهما وتغيّر وضع الاعضاء الباطنة ممّا ينجم عنهُ اضرار جمّة. نعم وهنَّ مع ذلك يشددن اوساطهن بزنار ليتمكنَّ من اتمام اشغالهنَّ

ولبس الكوفية او الحطَّة موافق للفلّاحين ويمنع عنهم الحرّ والبرد اما العقال فيمكّن الكوفية من الرأس لكنهم يبالغون بثقل وزنهِ . فان اكثر الشبان يتباهون بانهم يحملون على رؤوسهم عقالات لا ينقص وزن كل منها عن مائتي درهم بل اربعمائة درهم واكثر فتسبب بثقلها وضغطها على الجبين والراس احتقانات فيما تحتها من الاوردة والشرايين وتكون داعية لامراض العين . فالاوفق ان تكون العقالات خفيفة الوزن وان يلبس الاهالي في الصيف كوفيات بيضاء تكسر عن رؤوسهم اسهم اشعة الشمس وحرارتها في بلادهم متوهجة قادحة اما الشتاء فتصلح لهُ كوفيات سوداء تحفظ لهم الحرارة الداخلة وتمنع عنهم البرد الخارج طبقاً للقوانين الطبيعية

٣ المساكن في تلك البلاد

ينبغي للمسكن ان يكون مرتباً ومبنياً على اصول صحية تكفل للانسان راحة بعد التعب وعلى الاخص للفلّاح الذي يقضي يومهُ يقاتل الارض وتقاتلهُ فيجب ان يكون مسكنهُ موفراً لاسباب الصحة والراحة بسعتهِ وتهويتهِ وتدفئتهِ . بيد ان بيوت هؤلاء الفلاحين المساكين خالية من الصفات الصحية ما عدا القليل منها وتكون غالباً متراكمة متلاصقة يضغط بعضها بعضاً ليس لها نوافذ سوى ابوابها الصغيرة وبعضها لا جدار لها سوى الذي فيهِ الباب كانها مجتمعة لتتحامى من قرس البرد او من هجمات اللصوص . ومنها ما هو مبني على زوجين من القناطر ومنها على اكثر فيأوي تحت سقفها الواطي وبين جدرانها التي لا نوافذ لها الفلاح وامرأته واولادهُ وجمالهُ ومواشيهِ ودجاجهُ مع ما يلزمهُ من المؤن والذخائر لنفسهِ ومن العلوف لبهائمهِ . ومن يدخل صباحاً او مساء الى احد هذه البيوت يهبّ في وجههِ هواء دافئ كانهُ داخل الى فرن او حمام فضلاً عما هناك من الروائح الوخمة . ومركز البهائم من البيت يدعى اصطبلاً ومركز السكان مصطبة . وترتفع هذه عن ذاك نحو ذراع . ويصيبها نصيب وافر من براز الدجاج وزبل الحيوانات الصغيرة . فلو كانت مغطاة بالمفروشات لكانت خسارة الفلاح عظيمة ولكن لحسن طالعهِ لا تفرش ارض بيتهِ الّا ببعض حصر من البابير يبطرنها للنوم وتلف وتنضد في محلّ آخر في النهار فهي فراش الفلاح ليلاً . وغطاؤه لحاف او عباءة ووسادتهُ من عصافة القمح وبعض الفلاحين لهم فرش من صوف الغنم . والتدفئة تقوم بوجاق في احد اركان

البيت يُبنى باقراص من الطين ويجعلون قاعدتهُ واسعة ثم يضيق تدريجاً حتى ينفذ في السطح ويوقد فيهِ الحطب للطبخ والتدفئة . ولا يتمكن من الجلوس بقرب النار سوى اربعة او خمسة . والجهة المقابلة للنار تدفأ وحدها بخلاف الجهات الاخر لانَّ النار في الوجاق تجرّ مجراها تياراً من الهواء يخرج قسمهُ الدافئ من النافذة وقسمهُ البارد يهبُّ في الجهة التي لا تقابل النار فيوردها برداً . فطريقة هذه التدفئة جيدة لتجديد هواء المكان لكنَّها غير مفيدة لتدفئة السكان . وقد اعتاد الاهلون ان يرصفوا بيوتهم بعضها بجذاء بعض وان يسكن الفلاح وبهائمهُ تحت سقف واحد لفقد الامن والراحة واكثرة اللصوص والاشقياء في هذه البلاد . فالامل وطيد بان الاحوال تتحسن بايام الدستور وعن قريب يتمكن الفلاحون بفتح نوافذ بيوتهم وابعادها عن بعضها فينام الفلاح بمكان منفرد عن مواشيهِ وهو مطمئن البال من سرقة متاعهِ . ولو كان الفلاح يقضي اكثر اوقاتهِ تحت سقف بيتهِ وما بين جدرانهِ لكان اقصر الناس عمراً ولكنهُ في الشتاء ينهض باكراً ليذهب الى الحقل ولا يعود منهُ الّا بعد غروب الشمس وفي الصيف اكثر نومهِ في الكرم والبيدر والحقل فهو معرض اذاً لاستنشاق الهواء النقي اكثر منهُ للريح الراكدة المفسودة

٤ هواء تلك الجهات او مناخها

هواء بلاد بشارة على جانب عظيم من الجودة . يتشرَّب ما بين الصخور ويمرُّ على غابات فيخرج ناشفاً لا دفس فيهِ ولا جراثيم وبائيَّة ولولا جودتهُ ونقاوتهُ لكان اهل هذه البلاد في اسوإ حال تتقلبهم الامراض الوبائية لعدم تنظيم معاشهم بالأكل والمشرب واللباس والسكن . فالفضل كل الفضل في جودة الصحة العمومية يعود الى طيبة المناخ ونقاوة الهواء حتى ان معدَّل الموتى سنوياً لا يتجاوز الاثني عشر في الالف واكثرهُ من الاطفال ورغماً عن ذلك فالامراض ضاربة في تلك الانحاء اطنابها

٥ الامراض في تلك الجهات

من اشدّ الامراض انتشاراً امراض العين واخصُّها الرمد الحبيبي . ثم الحمى الملاريَّة بانواعها واكثر المواقع اصابة فيهـا ما يقرب رأس العين واسكندرونة وعلما الشعب وشاطئ نهر الليطاني وغربي الحولة . وكثيراً ما يصاب الرضَّع بالاسهال والهيضة حتى

ان تصف المصابين بهذه الاسقام في مضارب العرب وفي بعض قرى الفلاحين يذهبون ضحيتها فيموتون. وفي انتهاء الخريف وعند ابتداء الربيع تتوفر الاصابات بالنزلة الصدرية وذات الجنب والاعراض الروماتزمية. ويوجد داء كثير الانتشار في هذه البلاد لا يكاد يخطر على بال انسان وجوده فيها وهو التدرن (السل) وقد شاهدت من جميع انواعه ما عدا النوع الحادّ. ولا تكاد قرية تخلو منهُ حتى ان خيام العرب لم تحمها الصخور والغابات من وبائه وقد شاهدت ما بينهم ثلاث اصابات انتهت بالموت

واني اتخوف من سرعة امتداد هذا الداء في تلك الجهات. فان اهالي هذا القطر جهلة غفلة لا يعرفون الطرائق الصحية ولا الوقاية من العدوى. ففي بيوتهم وفي مجتمعات الاعراس والمآتم يأكلون من قصعةٍ واحدة ويشربون باناءٍ واحد ولربما اتخذوا ملعقةً واحدة فلعقوها بالتناوب (ولكن الحمد لله انهم يستغنون عن الملاعق بالخبز الرقوق) ولا يطهرون البيوت ولا الثياب حتى ما استعملهُ منها المرضى وينامون بقرب المريض تحت سقف واحد. فاسباب الخوف راهنة واذا سرى هذا الداء العياء انتشر بكل سرعة بين هؤلاء القوم الجهلة الذين يدفعون بانفسهم الى الآلام والموت كالغنم الى الذبح. ومن بعد الفحص المدقق والبحث عن الطرق التي وصل بها هذا الداء الى هذه البلاد وجدت أن اكبر واسطة هي الموروثات من الاثاث والملابس الملوثة التي يحضرها بعض التجار من الشام وبيروت وغير اماكن ويبيعونها في سوق بنت جبيل وجويا وخلافهما وعلى جهل منهم يحملون الى بيوتهم والى بلادهم شقاء وبلاء وداء كادت تحبط دونهُ الادوية

هذا اكبر سبب وجوده وهناك سبب آخر ليس باقل منهُ اهمية. فقد شاهدت وعاينت اشخاصاً عديدين عائدين من المدن ومن الخدمة العسكرية حاملين هذا المرض هديةً الى بيوتهم واقربائهم. فيا حبذا لو منعت الحكومة مبيع الخاميات او احرقتها او سهرت على تطهيرها. ويا حبذا لو قسرت اصحاب البيوت والزمتهم بغسلها. وبما ان الاهالي يجهلون اسباب العدوى وطرق الوقاية منها فلحظتُ انَّ اصابات هذا الداء ازدادت في هاتين السنتين حتى انني في خلال شهر ايار من السنة الماضية قد شاهدت خمسة وعشرين حادثًا في قرى مختلفة فاصبح الخوف راهنًا من استفحال هذا الداء. ومما زاد ضغثًا على ابالة اقبال الناس على المهاجرة. ومن المهاجرين من يعود الينا غير حامل سوى جعبة من ميكروبات التدرن والزهري. وقد وجدت ما بين الفلاحين والعرب اصابات عديدة من

هذا الداء الاخير قبل عود المهاجرين وانَّما ازدادت بعد عودهم . فما كان اغنى اهل هذه البلاد عن المهاجرة لو كانوا ذوي دراية وادارة يحسنون زراعة اراضيهم الجيدة ولو كانت بلادهم خالية من الظلم وحاصلة على الامن والراحة العموميَّة

تلك هي الامراض الغالب انتشارها اعني امراض العين والملاريا وهيضة الاطفال والتدرن والزهري والنزلات الصدرية وذات الجنب والروماتزم المفصلي (في بعض القرى) امَّا العلل الاخرى فيحدث منها بعض اصابات . وممَّا شاهدتهُ عيانًا حادثتان من داء سيرنكوميالي (احداهما في مزرعة الطيرة والاخرى في اترث) وحادثة جواتر الجحوظ ولست اذكر من اي بلد كان المصاب بها

وان من يسمع بكثرة هذه الامراض ويعرف اتساع البلاد وقلة عدد الاطباء فيها يظن ان الطبيب الذي يقيم فيها يكاد يتضايق من ازدحام المرضى وان الدراهم تنهال عليهِ مثل المطر . نعم لو كان جميع المرضى يتطبَّبون لصحَّ ذلك ولكن لاهل هذه الانحاء عادات واعتقادات يتمسَّكون بها وهي تمنعهم عن التطبُّب اذكرها قبل انتهاء هذه المقالة لانها ذات اهميَّة

اعلم انَّ سكان هذه البلاد متاولة ونصارى . فالنصارى قليلون والمتاولة هم الاكثر عددًا وهؤلاء لا يتطببون الاَّ « على الخيرة » كما يقولون . وهي طريقة يعدُّون بها حبَّات السبحة باصول معروفة عندهم واكثرهم ان لم أقل جميعهم يجرون عليها ولا يقدم احدهم على عملٍ ايًا كان الاَّ من بعد الاستخارة فان صحَّت (كما يقولون) كان العمل موافقًا والاَّ فلا . وهم شديدو التمسُّك بها . وقد اتفق لي اني دُعيت لاحدى قراهم فدفعوا لي اجرة الطريق ولم يأخذوا للمريض دواء لان الخيرة ما صحَّت

وهذا يختص بالمتاولة ودونك ما يعمُّ الاهلين جميعًا فكلهم اذا ألمَّ الداء يطلبون الشفاء السريع من الطب ولا يعلمون بان امراضًا كثيرة يقتضي لها معالجة طويلة ومنها ما لا شفاء لهُ وان من اهمّ واجبات الطب تلطيف الاوجاع وتخفيف الآلام ومساعدة الطبيعة غاية الامكان . فنفرٌ قليل منهم يدعون الطبيب ليعود المريض اكثر من مرَّة ومنهم من يطلب من الطبيب بعد العيادة الاولى ان يكرر عياداتهِ للمريض مجانًا على زعمهم سواء كان في محل اقامتهِ او في بلدٍ آخر اذ صار ملتزمًا بهِ ومن تفريطهم انهم لا يدعون الطبيب الاَّ متى رأوا المريض اشرف على الخطر ووقع في الهذيان وابتلاه السُبات .

اما اذا كان المريض منتبهاً فلا يرون في حالته بأساً . وبالاجمال يريدون ان تكون المعالجة مقاولة على شرط النجاح سواء كان في الامراض الباطنة او الجراحات فان تعافى المريض اخذ الطبيب اجرتهُ وثمن ادويتــهِ والاَّ فلا . وكثير منهم يعدلون عن العلاج لعدم قبول الطبيب بشروطهم . ومن غريب امرهم انهم لا يطببون الشيوخ « لان ما عاد لهم بهم عازة » ولا يعالجون الاطفال « لاعتقادهم ان لا دواء لهم » فبناء على ذلك مهما كثرت الامراض . فهذه التقليدات والاعتقادات تجعل مهنة الطبيب حرجة وتضيق دائرة التطبيب . ومن الاسباب التي تؤخرهم ايضاً قصر ذات يدهم وبُعــد الاطباء عنهم . فلو كان جميع الاهالي يلتجئون الى الادوية لكانت هذه البلاد تقوم بمعاش عشرة اطباء ان لم اقل باكثر

على هذه الحال كان الطب عند حضوري الى هذه الديار . امَّا اليوم فقد تحسنت حالتهُ نوعاً عن الاول وعلى الاخص في عين ابل التي كانت مركزي والقرى المجــاورة وصار الاهلون يقبلون برغبةٍ على الاطباء . ويتكلَّمون عن الميكروبات ويعرفون الوسائط الصحيَّة ويبالغون في الوقاية من العدوى ويطببون الشيوخ والاطفال

وقبل الانتها ارجع واستلفت انظار الحكومة السنية لاتخاذ الوسائط اللازمة لمنع سريان داء التدرن واصدار التعليمات الطافيــة لعمل حواجز للآبار وتطيير البرك والمستنقعات وتنظيف الدور والازقَّة من الاقذار والارساخ

والى زملائي المتخرجين حديثاً ارجّه كلامي مستلفتاً انظارهم الى تلك الجهات واتمنى ان نفرًا منهم يأتون ويقيمون فيها فتكون اقامتهم كمباشرة لفنّ الطب فيتمرَّنون بكل تأنٍ في هذا المستشفى الرحب ويقدمون بذلك خدماً جليلة الى الهيئة الاجتماعيَّة